الارض » فصحَّ ما اردفهُ قائلًا : « ومذ ذاك الحين اتمَّ السماء والارض وكلّ زينتهما (تك ٢ : ١) فسبحانهُ تعالى وتبارك اسمهُ

من بيروت الى الهند

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)
١٥ مسقط — كُراتشي — بمباي

واهل هرمز قوم من صعاليك العرب يرتزقون من الصيد . وهناك مناجم من المُغرة وهو طين احمر فيهِ شيء من اوكسيد الحديد يُتَّخذ كصبغ فبعض من سكّان مسقط يستخرجونهُ لحساب اصحابهِ . وفي مسقط ايضاً معادن اخرى من الرصاص والفضَّة ليس احد يُعنى باستثمارها

وصلنا في صباح الجمعة ١٣ ك ١ الى مَسْقط بعد ان عدلت باخرتنا جادة عن سواحل العجم ميمنةً جوانب العرب سائرةً الى الجنوب الغربيّ . فدخلنا بحر عمان المتَّصل بالاوقيانوس الهندي ثم نفذت السفينة بين صخور عالية حتى ارسينا في مرفأ طبيعيّ تصونهُ الصخور عن هبوب الرياح . واذا نحن امام قصر عالٍ على جانبيهِ بيوت اوربيَّة لقناصل الدول وعمَّال شركات المراكب والدواوين البحريَّة في وسطها شجر النخل وكل هذه المباني تُشرف عليها من كلّ انحائها صخور بركانيَّة منتصبة عموديًّا حولها على شكل نصف دائرة . فاستغربنا هذا المنظر ومتَّعنا النظر بمشاهدتهِ ساعةً ثمَّ انحدرنا الى البرّ لنشاهد المدينة عن كثب . فافادونا انَّ القصر الذي كان ألفتَ ابصارنا هو لسلطان عُمان المسمَّى فيصل بن تركي المتولّي على بلاد عُمان التي موقعها شرقيّ جزيرة العرب على سواحل البحر شمالي حضرموت واليمن وجنوبي البحرَين يملك على نحو مليونين ونصف من العرب . ومسقط هذه حاضرةُ ملكهِ ومن مدنهِ مطرح وصُحار

ومدينة مسقط لا تُرى من البحر فانها واقعة وراء الصخور التي تحجبها فسرنا اليها واذا هي كثرية كبيرة الّا انَّها متجمّعة يكتنفها سور وتقطعها سوق مقبَّبة للتجار

ازياء المسلمين في بلاد الهند

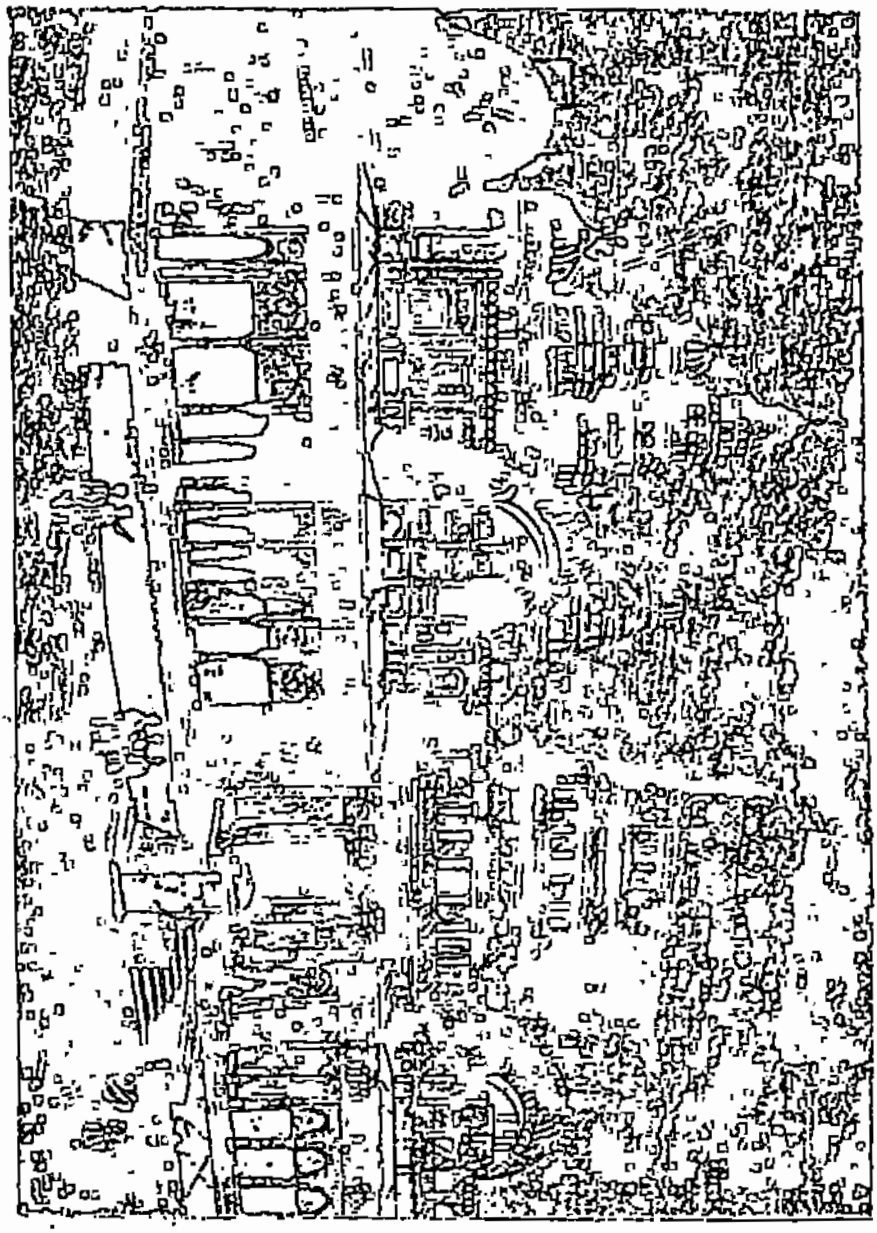

واهل الصنائع واكثرهم من العجم والهنود والحبش امّا العرب فيسكن كثير منهم في الخيم المجاورة للمدينة الّا بعض اهل الحضر الساكنين في البيوت ولغتهم مشوبة بالفاظ اعجميّة . وسألنا بعضهم عمّا لديهم من الكتب المخطوطة او المطبوعة فلم نعثر على شيء منها سوى بعض مطبوعات حجريّة مبتذلة . وسوق الادب عندهم كاسدة حتى ان صغارهم لا يجدون هناك من يُعنى بتربيتهم وتعليمهم . لكن البروتستانت فتحوا عندهم مستودعاً لنشر التوراة على حساب الجمعيّة البريطانيّة فيوزّعونها كما يفعلون في البحرين وقد رأينا الوكيل الذي عُهد اليه امرها فصرّح لنا بانّهُ لا يكاد يجد في تلك الجهات من يستفيد من بضاعته حتى ولو اهداهم اياها.

ومدينة مسقط تجاريّة اكثر منها ادبيّة لوقوعها في مدخل بحر العجم ولعلّها المدينة الوحيدة من بلاد عمان ترسي عندها السفن البخاريّة فتأتيها بالبضائع الاوربيّة ومحصولات الهند وسلع العجم وتنقل منها مرافق عُمان . واهلها اليوم يبلغون نحو ٣٠,٠٠٠ يرتزقون برعية المواشي وبمحصّل النّخل

وقد عرف الاوربيّون ما لمسقط من حسن الموقع وكان اوّل من فتحها منهم الفاتح الشهير ألبوكرك سنة ١٥٠٧ فتملّكها البرتغاليّون الى سنة ١٦٥٨ ومن آثارهم كنيستان للرهبان الاغوسطينيين هما اليوم جامعان ثمّ انتزعها منهم الانكليز وفي القرن الثامن عشر تولّى عليها سلاطين من الوطنيين الى عصرنا يضربون النقود باسمهم لكنّ الانكليز يرقبون حركات امرائها وقد امدّوا سلطانها فيصل في هذه السنة بجيش وانتذوهُ من ايدي طلّاب دولته فردّوهم بمبلغ من المال ثمّ بسطوا على حاضرته حمايتهم بل كادوا يعدّونهُ كاحد عمّالهم . وللانكليز في مسقط قنصل ينقاد السلطان لمشورته ومدخل المرفأ محصّن بالقلاع التي تخفق فوقها راية السلطان مع الراية الانكليزيّة .

وقد خافت فرنسة ان تفقد ما لها في تلك الجهات من النفوذ فسعى احد تجارها هناك المرحوم غوغويه (A. Goguyer) لدى حكومة دولته كي تقيم في مسقط لها قنصلاً فلبّت ملتمسهُ وكان اوّل قناصلها سعادة المسيو اوتاني الذي نُقل منذ عهد قريب الى قنصليّة دمشق . تعيّن قنصلاً على مسقط سنة ١٨٩٠ وكان يوم مرورنا ملازماً دارهُ مبلوّاً بحمّى خبيثة فزرناهُ وسُرّ بمواجهتنا وليس من الكاثوليك سواه

مع عمّاله ولا كنيسة لهم واخبرنا ما يلقاهُ في مهنتهِ من المشاكل بمعارضة الدولة الانكليزيَّة واعلمنا بان شركة الساجي الفرنسويَّة قد قرَّرت ارسال مراكبها الى البصرة مرَّة في الشهر وقد اجرت الامر فعلاً بعد مدَّة لكنَّها اعرضت عنهُ لمزاحمة السفن الانكليزيَّة

وبعد ان انتهينا من تفقد المدينة عدنا الى مركبنا الذي كان عيَّن ساعة سفرهِ في ظهر النهار. ولمَّا قرب ميعاد إقلاعهِ واذا برجل عليهِ بزَّة جند الانكليز ركب السفينة وسأل عنَّا فسلَّمني كتاباً انكليزيًّا بتوقيع القنصل الانكليزيّ في مسقط يقول فيهِ بانَّهُ بلغهُ انَّ احد المرسلين الكاثوليكيين مبرِّز في لعب الشطرنج فيؤمل من لطفنا بان نشرِّفهُ في دارهِ القنصليَّة ليختبر بنفسهِ حذق اللاعب

ولإدراك الامر لا بُدَّ ان نعلم القارئ استطراداً بانَّ حضرة رفيقي الاب يوسف شاغون كان مغرماً منذ حداثتهِ بلعب الشطرنج الملقَّب بلعب الملوك واذ وجد على ظهر السفينة قوماً من الهنود يلعبون بهِ راقبهم ليتحقَّق ما قيل عن مهارتهم وهذا اللعب قد اخترعهُ صدقه احد اجدادهم فلا غرو ان يكون لهم فيهِ السبق على سواهم. لكنَّهُ لم يلبث ان لحظ انَّ الخبر دون الخبر فلاعبهم وعجم عودهم ونال منهم غير مرَّة. فشاع خبرهُ بين الركَّاب وطلبت السائحة الانكليزيَّة السيِّدة تنر (Miss Tanner) ثمَّ ربَّان المركب وغيرهما ان يرضى بملاعبتهم فكان لهُ الفوز في اغلب الاحيان. ولمَّا نزل الركَّاب الى مسقط ذكروا للقنصل الانكليزي حذق الاب في لعب الشطرنج فاحبَّ ان يعاينهُ ويلاعبهُ فارسل لنا ذلك الكتاب يدعونا الى منزلهِ

فاخذني العجب من هذه الدعوة وعارضتُ الجنديّ بقولي انَّهُ حان وقت السفر ولا ندحة لنا للنزول الى البرّ. فكان جوابهُ انَّ القنصل يستطيع ان يوقف السفينة ويؤخر سفرها. على انني بعد مشاورة رفيقي اجبتُ كتابيًّا سعادة القنصل شاكرًا لهُ حسن ولائهِ ومعتذرًا لديهِ بقرب ساعة السفر مصرِّحاً لهُ بأنَّ تأخير سفر السفينة لداعٍ غير مهمّ لمَّا يسوّ ركَّاب السفينة فاقنعهُ جوابنا. على انَّ معرفة الربَّان بمضمون كتاب القنصل زادتهُ اعتبارًا لشخصنا وامر بأن نُحصى في عداد ركَّاب الدرجة الاولى

وعند الظهيرة برح مركبنا مرفأ مسقط ووجَّه سيرهُ نحو الجنوب الشرقيّ الى

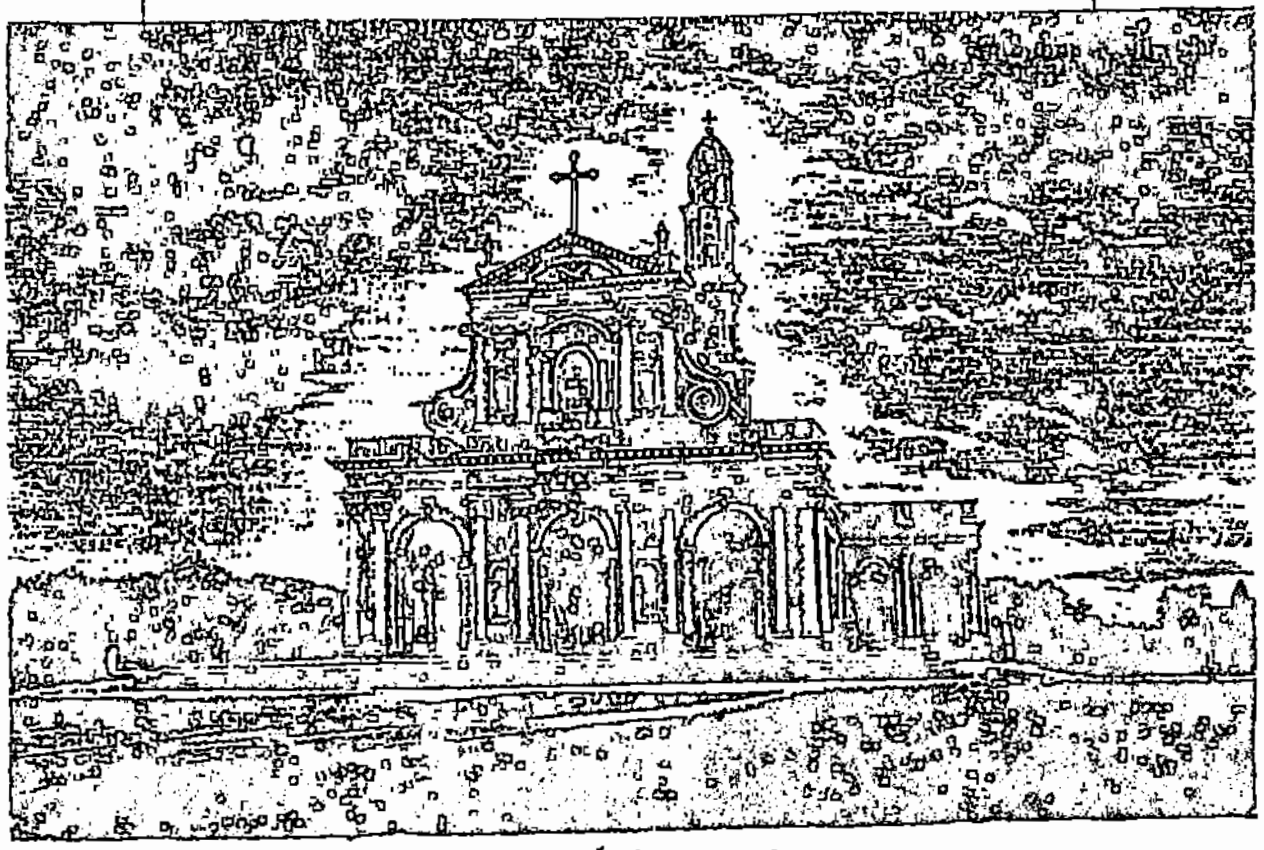

كنيسة كاثوليكيّة في الهند

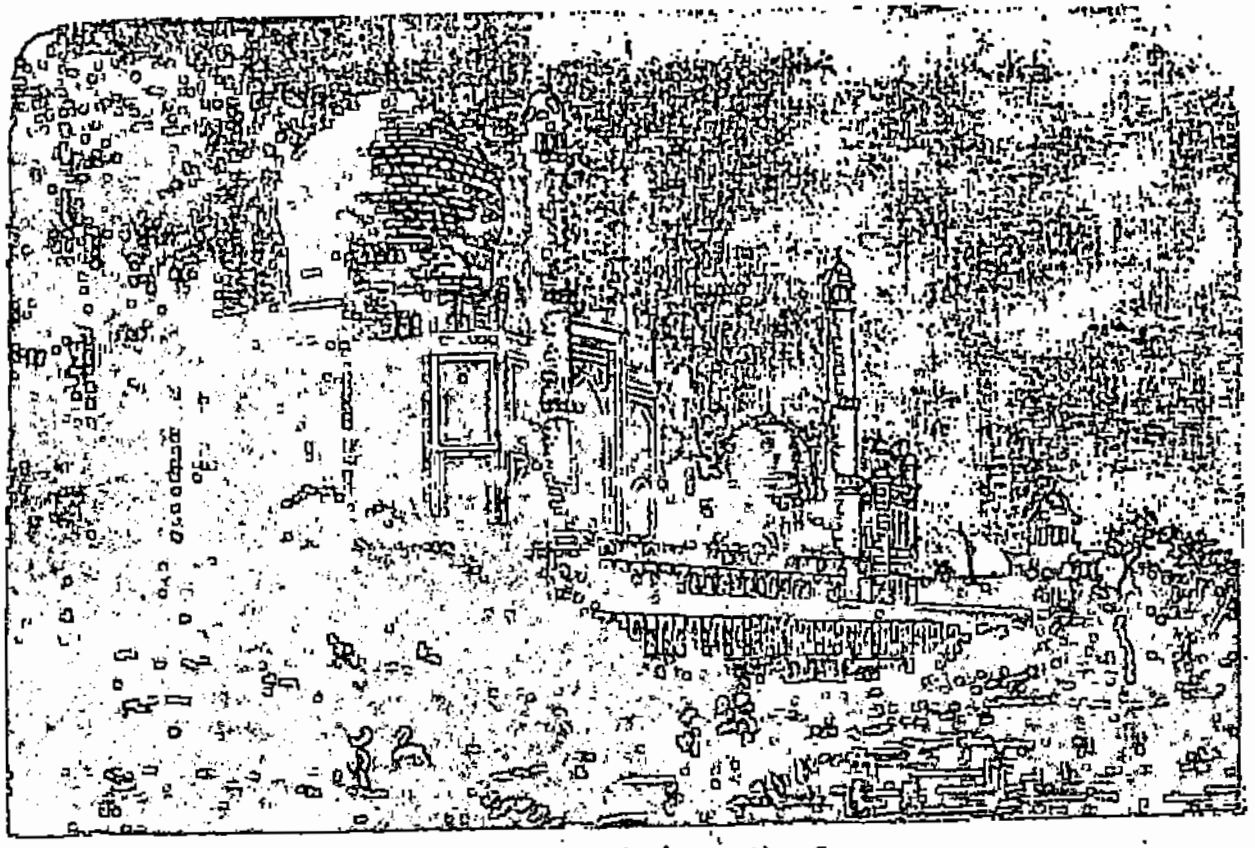

قصر لاحد ملوك المسلمين في هندستان .

جهات الهند فجرى بقيّة نهاره ثمّ طول الليل وصباح الاحد الواقع في ١٥ك ١ فوصل بعد مسير عشرين ساعةً الى مرفأ كوراتشي وهي مدينة حديثة من مدن الهند واقعة في معاملة السند يرّ قريباً منها شعبٌ من نهر الهندوس الزاخر . وكان املنا ان ننتقل من مركبنا جاوة ساعة وصولنا الى مركب آخر يسير الى عدن لكنّ ذاك المركب كان سافر قبل وصولنا بخمس ساعات فتحتّم علينا ان نذهب الى بمباي بعد لبثنا يومين في كوراتشي لأنّ مركبنا جاوة كان يحتاج الى هذه المدّة ليفرغ ما شحنهُ من البضائع والغلّات من البصرة والعجم ومسقط . فرأينا في الامر عناية خاصّة من الله لتعاين شيئاً من احوال الهند

فنزلنا في كوراتشي ولم نعلم انّ للآباء اليسوعيين هناك ديراً عامراً . فلمّا وقفنا على ذلك اسرعنا فركبنا عربةً اقلّتنا الى محلّهم وهو في اقاصي المدينة والمدينة عينها تبعد عن المرفإ نحو ساعة ونصف فاذا هناك دير متوسط الكبر وكنيسة عظيمة مبنيّة على الطرز الفرنجيّ الجميل مع مدارس زاهرة يتقاطر اليها نخبة من شبّان البلد منهم وطنيّون من الهنود والپارسيّين ومنهم اجانب لا سيما الانكليز والارلنديّين

فكان حلولنا بين اخواننا الرهبان على الرحب والسعة وهم كلّهم من الالمانيين لانّ كوراتشي لاحقة برسالة بمباي التي يهتمّ بامورها الآباء الالمان بينما يُعنى برسالة كلكوتة اليسوعيّون البلجيكيون وبرسالة مادورة اليسوعيّون الفرنسويّون وبرسالة منغالور اليسوعيّون الايطاليّون . هذا فضلاً عن بقيّة الرهبانيّات التي تشتغل في اقاليم اخرى من انحاء الهند

كان اليومان اللذان قضيناهما في كوراتشي يومَي راحة وبهجة تامّة بعد اتعاب سفرنا ولم يدّخر الاباء المرسلون وسعاً في توفير اسباب هنائنا لا سيما انهم كانوا قرأوا في جرائد اوربّة انّنا قُتلنا في مذابح ارمينية فاطمأنوا على رواياتها . وقد زرنا بصحبتهم انحاء المدينة وأرونا ما يستحقّ الذكر فيها . وكوراتشي هذه مدينة محدثة كانت قبل مئة سنة قرية حقيرة وهي اليوم مدينة عامرة يبلغ اهلها نحو مئة الف نفس . وللاوربيين فيها الدور الحسنة والمباني البهجة ومعظم تجارتها اليوم الحبوب والقطن وقد جعلها الانكليز بمرفإها الجديد وسككها الحديديّة احدى حواضر مدن الهند بعد ان كان العرب يبيعون فيها سابقاً الرقيق والعبيد . وفي احد انحائها حظيرة

واسعة للحيوانات الغريبة المجموعة من الهند والبلاد المجاورة بينها الاسود والنمورة والسباع واصناف الحيّات والتماسيح واشكال الطيور كالنسور والعقبان والببغاوات اعجبنا منها شكل من الغربان البيض على خلاف لونها المعروف وحيوانات أخرى اهداها امراء الهند ذلك المتحف

ووافق وصولنا الى الهند الفصل الطيّب من السنة مدّة وقوع وقت الزمهرير في بقيّة البلاد فكان اديم السماء صافياً والحرّ مع اشتداده محتملًا والبحر هادئاً والارض مكتسية بزخرفها من النبات فكنّا ننظر الى ما هنالك من الاشجار الغريبة والاثمار الشهيّة اللذيذة التي كنا نعرفها بالسمع دون العيان كالعنبة والفلفل وجوز بوا وكنّا نعاين خصوصاً بشوق غابات النارجيل مع جذوعها الباسقة وسعفها المنتشر في الهواء كالمظلّات الواسعة تأوي اليه الغربان الناعبة

ومن غريب ما شاهدنا هنالك في ارباض المدينة بروج الصمت وتسمّى في لغتهم دَخْمَا وهي صروح عالية مربّعة او مستديرة تُرَى عن بُعد كالمآذن يُصعَد اليها بتراقٍ في داخلها وفي اعلاها سطح على شكل المشبّك يعرض عليه مجوس الناحية موتاهم فتحطّ عليها الغربان وتفترس لحومها ولا يبقى الّا العظام فتسقط بين عوارض المشبّك الى بئر تحتها وذلك لئلا تتدنّس الارض او النار بشيء نجس

وهؤلاء المجوس بقيّة من مجوس العجم وشيعة زرادشت يعبدون الشمس والنار ويقولون بإلهين اله الخير واله الشرّ هما في نزاع مستديم وقد هربوا الى الهند لمّا تشدّد عليهم المسلمون وصادروهم ولهم في الهند هياكل يوقدون فيها النار دون انقطاع ويعبدونها كصورة اله النور الذي تمثّله غزالة النهار . وهم يُدعَون في الهند باسم پارسي (Parsis) وهي لفظة مشتقّة من الفارسي اشارة الى اصلهم . وعددهم في الهند نحو ٨٠,٠٠٠ وهم معروفون بنشاطهم وتقدّمهم وذكائهم يتقدّمون الاوربيين في ازيائهم . ويمتازون بشبه تاج كتاج اساقفتنا يجعلونه على رؤوسهم وكان البعض منهم على مركبنا يعرفون الانكليزيّة فتباحثنا معهم عن تاريخهم ودينهم . ولهم في الهند اليد الطولى في التجارة ومصارفهم من اعظم مصارف الهند . وكانت لغتهم قديماً الزنديّة وهم اليوم يتكلّمون بالهندستانيّة والغوجراتيّة اعظم لغات الهند شيوعاً واغلبهم في عهدنا لا يكترثون للدين فاصبح الاله مثون اي الدينار معبودهم الاعظم

وقد سُرِرنا لما رأيناهُ في كوراتشي من تقدُّم الكنيسة الكاثوليكيَّة وانَّا اكثر الكاثوليك من الاجانب لاسيما نصارى غوا والبرتغال وعلى الاخص الارلنديين المتجندين في الجيش الانكليزيّ فترى هؤلاء الجنود في الآحاد والاعياد يأتون بنظام فيحضرون الرتب الدينيَّة بكل خشوع ويتغنَّون بالاغاني الروحيَّة . وقد رأيناهم في الكنيسة ساعة وصولنا يحتفلون بيوبيل شفاعة القديس يوسف فأثَّر فينا منظرهم ايّ تأثير اذ رأيناهم يطوفون حول الكنيسة بتقيّ ويسمعون عظة الخطيب بلذّ السرور . وهؤلاء الجنود جمعوا مالاً من رواتبهم قبل خمس سنوات فاقاموا امام الكنيسة تمثالاً كبيرًا لشفيع بلادهم القديس بتريك فلمَّا نصبوا التمثال كانوا يأتون في ساعات الفراغ ليزيّنوهُ وجعلوا حولهُ حديقةً غرسوا فيها ضروب النبات واصناف الزهور واذ رأى قائدهم عناية الآباء بخير الجمهور منحهم ارضاً واسعة ومساعدات ماليَّة مكَّنتهم من تشييد مدارس واسعة على شرط ان يخصُّوها في وقت الاوبئة لخدمة الجنود الموبوئين وقد رأينا احداث المدارس المتقاطرين اليها وحضرنا روايةً مثَّلوها تمثيلاً اصوليًّا متقناً . وفي اثر هذه الرواية وزَّعوا الجوائز على مستحقيها وصرفوا التلامذة الى الفسحة السنويَّة التي تدوم شهرًا بنسبة وقوع عيد الميلاد ورأس السنة . وافادنا رئيس المدرسة انَّ التلامذة باجتهادهم وهمَّتهم نالوا غير مرَّة ثناء الفاحصين الذين ترسلهم الحكومة لامتحانهم ومن جزاء ذلك يمنح سنويًّا نظَّارُ المعارف هذه المدرسة مبلغاً ماليًّا لنجاح تلامذتها . وتصيب الراهبات اللواتي يسعين هناك بتهذيب البنات ببالغ مثلها لرقيّ مدارسهنَّ

ويوم الثلاثاء في ١٧ من ك ١ بعد ان شكرنا آباء مدرسة كوراتشي عدنا الى سفينتنا جاوة فاستأنفت المسير ومخرت البحر جنوباً دون ان تتريَّث حتى بلغنا في منتصف يوم الخميس ١٩ منهُ ذاك المرفأ الواسع الارجاء الذي اعدَّتهُ يد الطبيعة واحكمتهُ دون عمل الانسان اعني مرفأ بمباي (Bombay) الذي من اسمه اشتقُّوا اسم المدينة ومعنى بمباي باللغة البرتغاليَّة المرفأ الحسن امَّا الاهلون فصحَّفوهُ فيقولون مُنْباي ويذهب البعض الى انه اسم احدى إلاهات الهنود . وبفضل هذا المرفأ الطبيعي قد نالت بمباي مقاماً رفيعاً في الهند وتعدّ من حواضرها مثل كلكوتة ودهلي ومدرس

نزلنا في بمباي في كليَّة الآباء اليسوعيين المعروفة بمدرسة القديس فرنسيس

كسفاريوس . وهي مدرسة واسعة كاكبر مدارسنا في اوربّة مجهّزة بكل لوازم التعليم على الطرائق الحديثة لا ينقصها شيء من تجهيزات الاكتشافات العصريّة الموافقة لغايتها من اسلاك تليفونيّة ومصابيح كهربائيّة ومتاحف علميّة

فكان لاستقبال المرسلين لنا كما في كوراتشي في غاية الوداد واذ كانوا دخلوا في عطلة الاعياد الميلاديّة تفرّغوا لخدمتنا بكل رغبة . وكان بين الرهبان بعض الآباء الذين عرفناهم سابقاً في انكلترّة في مدرسة ديتون هال (Ditton-Hall) حيث كانت دار العلوم اللاهوتيّة لليسوعيين الالمانيين فسرّهم قدومنا الى الهند بعد أن أخبروا بموتنا في جملة ضحايا الارمن

قضينا اسبوعاً كاملاً في بباي فامكننا ان ندرس احوال البلد درساً نعماً . وكان اوّل ما قضت علينا واجبات الكهنوت ان نزور سيادة رئيس اساقفة بباي السيّد دالهوف (Mgr Dalhoff) سليل الرهبانيّة اليسوعيّة وخلف السيد مورين (Mgr Meurin) الشهير باعماله الرسوليّة في الهند وكتاباته عن اللاسونيّة التي كان من الدّ اعدائها لما عرف من شرورها المتفاقة . فالسيّد دالهوف اكرمَ افادتنا وهنّأنا بالنجاة من مذابح الاكراد وعرض علينا الاقامة مدّة في بباي والسياحة في غيرها . فشكرنا لسيادته تلطّفهُ وطلبنا بركة مساعده السيد بيدرلين (Mgr Biderlein) اسقف پونا (Poona) اليسوعيّ مثلهُ

بباي مدينة من امّهات مدن الهند وعاصمة اقليم الهندستان موقعها بازاء افريقية في غربيّ الهند على خطّ مثلّث كبير يغوص راسهُ في اوقيانوس الهندي ويمتدّ جانباهُ بين بحر بنغال وبحر عمان وبباي تابعة لارخبيل صغير لاحق بجزيرة سلسات . ولحسن موقعها الذي تحيط به الجبال مع سعته اضحت اليوم عاصمة الهند التجاريّة يتوارد اليها اهل تلك البلاد على اختلاف اجناسهم مع عدد لا يُحصى من الاحباش والعجم والعرب فيكاد الناظر يجد في هذه المدينة وحدها كلّ عناصر البشر وازياءهم ويسمع لغاتهم . والاحصاءات الاخيرة تبلغ عدد سكان بباي الى نحو المليون من النفوس

وما زاد موقع بباي اعتباراً سككها الحديديّة التي توصلها بداخليّة البلاد وبعواصم الهند حتى اقصاها كدهلي وكلكوتة والالهباد ولاهور فتتوارد اليها كلّ مرافق تلك

الاخماء ومن اعظم متاجرها القطن والقلّات المختلفة قيل انّ مبلغ واردات بمباي وصادراتها سنويًا لا يقلّ عن ١,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك والسُّفن التجاريّة الكبيرة من كلّ الدول تأتيها بسلع اوربّية وتنقل عنها محصولات الهند

وبمباي تنقسم الى قسمين المدينة الاوربيّة التي لا تخالف حواضر الفرنج في شيء والمدينة الوطنيّة حيث يشتمّ المسافر رائحة الهند ويرى احوال اهلها في دينهم ودنياهم وكان هذا القسم الثاني هو الذي استوقف ابصارنا على الاخصّ

والهنود امّا مسلمون وامّا وثنيّون . فالمسلمون ارقى حضارةً واذكى عقولًا من الوثنيين يسعون اليوم في جمع كلمتهم لمباراة الاوربيين وتقوية عنصرهم فلهم المدارس الجامعة لدرس العلوم الشرعية وغيرها والجوامع الفخيمة والمشروعات الخيرية والمؤتمرات الملّيّة وينشئون عدّة صحف في لغات البلاد لا سيما الهندستاني والكوزراتي والعربيّ وانّما مطبوعاتهم غالبًا سقيمة الطبع قليلة الضبط والمسلمون في الهند فوق ثلث المسلمين في العالم كلهِ يبلغون ٦٠ مليونًا

اما الوثنيّون فعددهم في الهند نحو ضعف عدد المسلمين فهم ينيفون على المئة مليون من النفوس يُقسَمون غالبًا الى براهمة وبوذيين يعبدون ضروب الآلهة المثلثة لهم القوّات العلويّة وقوّات الطبيعة . وفي اديانهم كثير من الارجاس التي يأنف الكاتب من ذكرها فضلًا عن وصفها . ولآلهتهم تصاوير غاية في القباحة والشناعة كصور بوذا وسيوا لا يستطيع ان يمينها الناظر الّا يأخذهُ العجب من ضلال البشر في اوهامهم الباطلة . وبين تلك التماثيل صور نجسة كالتنكام يعرضونها على اتباعهم فيكرمونها . وكنّا ننظر مشايعي تلك الاديان يدخلون في هياكلهم صباحًا فيقرأ لهم سدَنَتُها قياماً من كتبهم الدينيّة في اوصاف الاوثان ونزاع الآلهة واخلاقهم الفاسدة ثمّ يلصقون على جباههم علامات وخطوطًا بالوان مختلفة كالاحمر والاصفر لتقيهم غضب اولئك الالهة وشرور احداثهم

ومن بلايا هؤلاء الهنود ما فيهم من اللفوف (les castes) المتباينة فانّهم يُقسمون الى طبقات شتى لا تختلط طبقةٌ بأخرى وارقى هذه اللفوف طبقة البراهمة الذين يعتبرون انفسهم كائنٌ سماويّ فيرون الطبقات التي دونهم بعين الازدراء والهوان كما يرى السيّد عبدهُ وعلى زعمهم انهم يتنجّسون اذا آكلوا سواهم او كلموهم او

اقترنوا ببناتهم وعادات كثيرة لا تخطر على بال غيرهم من البشر

ومنها حالتهم في الزواج وذلك انهم يعدّدون الزوجات حتى انّ الرجل الواحد يتّخذ عدّة نساء بل عدّة بنات فتيات قبل سنّ زفافهنّ واذا مات الرجل بقيت تلك النساء والبنات مقصورات وان لم يتمّ الزواج مطلقاً وكانت العادة قبل تملّك الانكليز اذا مات الرجل دُفنت معهُ نساؤهُ او حُرقن مع جثّته وهنّ احياء ولا تزال هذه العادة البربريّة جاريةً في بعض الجهات القاصية حيث لا يستطيع الانكليز ان يمنعوها

ومن عاداتهم الاغتسال المتواتر بماء الكنج النهر المقدّس عندهم وهم يزعمون ان من استحمّ بهِ طهر من ادران آثامهِ

ومنها اكرامهم لبعض الحيوانات لا سيما البقر فالبقرة عندهم مقدّسة تحلُّ فيها روح الآلهة ولذلك لا يستطيع المسلمون والفرنج ان يأكلوا لحومها الّا خفيةً عن معظّميها . وكنّا نرى في اسواق بمباي بقرًا مهمَلًا كان يجري من حانوت الى آخر فيحسن اليه الهنود بمعلوف والهنديّ يرى نفسهُ محظوظاً اذا اغتسل ببول البقرة واذا مات وفي يدهِ ذنبها

وقد رأينا ايضاً الافيال الضخمة تجري وعلى ظهورها شبه البيوت والهوادج وتحمل الاثقال العظيمة ويسوسها اصحابها بتؤدة فتجري طوع امرهم وتستعين بخراطيمها كما يستعين الانسان بيديهِ

وقد زرنا في بمباي المعاهد العموميّة والنوادي العلميّة والمدارس الوطنيّة . والحكومة تنشطها جميعاً بالهبات الماليّة لا تفرق بين دين ودين ولا تقدّم جنساً على جنس وانّما تقيس جوائزها على قدر نجاح تلك المدارس في الفحوص السنويّة قدّام لُجَن تُعيَّن لتلك الغاية

وفي مقدّمة هذه المدارس مدرسة القديس فرنسيس كسفاريوس للآباء اليسوعيين فانّ تلامذتها لهم السبق على سواهم . ففي السنة التي مررنا بها في بمباي كانت الحكومة خصّصت ثماني جوائز فاخرة لمن يفوزون بقصبة السبق فنال ستًّا منها طلبة مدرسة القديس فرنسيس . ومن ثمّ ترى اقبال الجميع على الانتظام في سلك تلامذتها وعددهم ينيف على الالف بينهم جمّ غفير من ناشئة البراهمة والبوذيين والمجوس الذين

مرَّ لنا ذكرهم . والدروس في هذه المدرسة ترشح التلامذة امدَّة مناصب في الحكومة او تؤهلهم للدخول في بعض الفروع الخاصَّة كالشريعة والطب

وللاباء اليسوعيين مدرسة اخرى داخليَّة تُعرف بمدرسة السيدة مريم (S' Mary's College) هي كالمدرسة الاعداديَّة لكليَّة القديس فرنسيس

فتلك المدارس الكاثوليكيَّة من شأنها ان ترفع بين اهل الهند مقام الكنيسة الرومانيَّة هذا فضلاً عن بقيَّة مشروعاتهم الخيريَّة التي في بمباي كالمستشفيات والملاجئ ومدارس البنات واعمال الطباعة والصحافة . وعدد الكاثوليك يبلغ اليوم في ابرشيَّة بمباي ٣٠,٠٠٠ وهو في الهند كلّها نحو ٢,٥٠٠,٠٠٠ ولم يكد يبلغ مليوناً قبل خمسين سنة

وقد اهتممنا في بمباي بان نطّلع على حركة الآداب العربيَّة بين اهلها المسلمين فلم نجد هناك ما كنَّا نؤمّلهُ . فانَّ مكتبتها العموميَّة ليست غنيَّة بالمخطوطات العربيَّة واكثرها كتب فقه وعلوم دينيَّة . وليس لدى باعة الكتب ما يستحقّ الذكر الَّا بعض مطبوعات لاهور وبمباي ولوكنو واكثرها مطبوع على الحجر طبعاً سيّئاً كالشفاء لابن سينا الَّا البعض منها كرسائل اخوان الصفا في اربعة مجلّدات

وكنَّا لا نزال نستعلم عمَّا في بمباي من اصحاب العلوم الاسلاميَّة لعلّهم يطلعوننا على شيء من آثار الاقدمين فزرنا احد امراء العلويين من سلالة عليّ بن ابي طالب فوجدنا عندهُ بعض كتب فارسيَّة جميلة بخطّ بديع وتصاوير . وتعرَّفنا ببعض الشيوخ الذين كان علمهم منحصراً بدرس القرآن والفقه وحظّهم من آداب اللغة قليل

وكدنا نيأس عن وجود اثر يُذكر بين عرب الهند اذ ارشدنا الله على طريق الصدفة العجيبة في عشاء الليلة التي سبقت سفرنا الى اكبر الكتبيين في الهند اسمهُ الشيخ الشيرازي ويلقَّب بملك الكتَّاب . فهذا كان عندهُ في بيتهِ مكتبة واسعة جمع فيها معظم مطبوعات الهند والعجم مع عدد وافر من المخطوطات . فذهبنا الى بيتهِ وقضينا ساعتين من الليل بين كتبهِ فاخترنا منها نحو الخمسين ثمَّ عدنا في سحر النهار اليه قبل سفرنا واخذنا مثلها عدًّا وبعد الاتفاق على قدر اثمانها نقلناها الى المدرسة وجعلناها في صندوق على عجلة تُحمل الى مركبنا

ومن اعزّ ما وجدناهُ هناك من المخطوطات النفيسة كتاب في معجم الأدباء

قديم الّا انّ اوّلـهُ مفقود وكتاب مختصر اصول الفلسفة لبهمنيار بن المرزبان من تلامذة الشيخ الرئيس ابن سينا يُدعى تحصيل بهمنيار وهي نسخـة فريدة تاريخ كتابتها سنة ٩٠٥ هـ (١٥٠٤ م) وكتب أُخرى في الهيئة والحساب والادب فصفها ان شاء الله مع بقيّة مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة

ووافق اسبوع اقامتنا في بباي استعداد الكاثوليك لعيـد الميلاد فكانوا يجتمعون كلّ مساء لاجراء رياضات تقويّة فتغصُّ بهم كنيسة المدرسـة على رحبها فيؤثر تقاهم في كلّ الناظرين

وكان الآباء المرسلون يشيرون علينا بان نطوف بعض جهات الهند ولا سيما في المدن التي رائجة فيهـا سوق الآداب العربيّة وبالاخص كلكوتة حيث الحكومة انشأت منذ نحو ثمانين سنة مطبعة نشرت تآليف جليلة كنّا لستجلبنا اكثرها لمكتبتنا في بيروت غير انّ رغبتنا في الرجوع الى برّ الشام في اوائل السنة ١٨٩٦ حدا بنا الى تقصير مدّة سفرنا

وكان شدّ ما نرغب اليه زيارة اديرتنا المختلفة في كلّ جهات الهند فان عدد تلك الاديرة ينيف على المئة ولكلّ دير اعمالهُ المختلفـة من مدارس عليا او وسطى او كتاتيب بسيطة ومن رسالات لتبشير الوثنيين حتى البراهمة ومن مشروعات خيريّة شتى كالمياتم ودور الصنائع ومن اعمال علميّة معتبرة كمراصد فلكيّة ومطابع لنشر ضروب الكتب في اللغات الهنديّة والاوربيّة. واعظم من ذلك رغبتنا النّاهبة لنظر مدينة غوا حيث يُكرَم جسد رسول الهند القديس فرنسيس كسفاريوس وهو لا يزال في صورته الاصليّة ولين اعضائه كما كان يوم موته في جزيرة سنسيان حيث كان مصمّماً على دخول الصين للتبشير بالدين. وحفظُ جسده من الفساد اعجوبة دائمة تنطق بفضل الديانة التي دعا اليها امماً لا تحصى وتابوتهُ الفخيم يُفتَح كلّ خمس سنوات امام جمهور عظيم يقبلون لمشاهدة ذلك الجسـد الطاهر فيكرمون رسولًا اقترف آيات لا تحصى منها احياؤهُ لعشرة اموات ونشر الايمان في كل جهات الهند واليابان . وذكرُ اعماله الاثيرة يحيي في قلوب مئتين من المرسلين النيرة لخلاص الوثنيين فيدعون على مثاله الوفاً من المشتركين الى حجر الكنيسة ويصبغون منهم بمياه المعموديّة كل سنة نيفاً وعشرين الفاً . فكفتنا ايضاً عن هذه الرغبة خوفاً من ان تطول غيبتنا على

اخوتنا في بيروت وهم لا يعلمون ما جرى بنا ابان المشاغب التي حدثت في ما بين النهرين وجهات الارمن

وكانت احدى سُفن الشركة الانكليزيَّة الكبرى المدعوة « Peninsula » متأهبة للسفر فعوَّلنا على ركوبها في يوم الاثنين الواقع في ٢٣ كانون الاوَّل

(البقيَّة لعدد آخر)

تعريف بعض مخطوطات مكتبتي

لجناب القانوني جرجس افندي صفا (تابع)

٤ ﴿ كتاب مجموعات ﴾ بخطّ قديم غير مذكور فيه تاريخ انتساخه ويشبه ان يكون كُتب منذ اكثر من اربعمائة سنة طوله ٢٧ سنتمترًا وعرضهُ ١٧ س بخط حسن دقيق مضبوط النقل يحتوي: ١ً على كتاب (النزهة المبهجة في تشحيذ الاذهان وتعديل الامزجة) للشيخ داود البصير الانطاكي المشهور المتوفَّى سنة ١٠٠٨ هـ (١٥٩٩ م) جمع فيه بين الطبّ وعلم الحكمة الالهيَّة وهو ١٢٧ ورقة وفي الصفحة ٢٩ سطرًا

٢ً كتاب (قسطا بن لوقا الفيلسوف اليوناني (١ في الباغم وعلله ومُداواته) قال « وهي المقالة الاولى من كتاب ألَّفهُ لابي الفطريف البطريق احد اعيان ارمينية » وهي سبعون باباً في ١٥ ورقة

٣ً كتاب (قسطا المذكور وهي المقالة الثانية من كتابه في الدم ومنافعه في ابدان الناس والعلل التي تحدث عن تغييره في كمية وكيفية وعلاج ذلك) وهي اربعون باباً في ١٠ اوراق

٤ً كتاب (قسطا المذكور ايضاً في المرار الاصفر) وهي المقالة الثالثة من كتاب ألَّفه لابي الفطريف البطريق وهو عشرون باباً في اربعة اوراق

٥ً كتاب لابن (قسطا المذكور في المرار الاسود) ألَّفه لابي الفطريف المذكور وهو اربعة وعشرون باباً وتسعة اوراق

---

(١) راجع في المشرق سنة ١٩١١ (١٤: ٩٤-٩٦) ما كُتب عن قسطا بن لوقا وتآليفهِ